تسمية العثمانيين : « الدولة العثمانية »
أم :
« الامبراطورية العثمانية » ؟

الدكتور محمد مقصود أوغلو

مدخل :

نثبت فى مقالتنا هذه ، تسمية العثمانيين لدولتهم ، ثم نتناول مفهوم « الامبراطورية » فى وجهاتها الثلاث وندرس : هل تنطبق هذه الوجهات على العثمانيين أم لا ؟.

وهذه الوجهات الثلاث هى :

١- الوجهة السياسية

٢- الوجهة الثقافية

٣- الوجهة الاقتصادية

وتنتهى المقالة بتقرير النتيجة تحت عنوان « الخلاصة » .

مما لا شك فيه أن تسمية أية مؤسسة أو أي وجود سياسي بغير الاسم الذى سمت به تلك المؤسسة نفسها ، وعرفت به

طوال القرون ، يتضمن تقويما ذاتيا مغرضا كما ينطوى على العداء تجاهها ، فمثلا يسمي المسلمون السنيون فرقة اعتقادية بـ« المعتزلة» بينما سمت تلك الفرقة نفسها بـ « أهل العدل » أو « أهل التوحيد » أو « أهل الحق » . ولو تبنّي السنيون آراء ذلك المذهب لسموه أيضا بـ « أهل العدل » أو « أهل التوحيد» أو « أهل الحق » .

ولكنهم استمروا فى تسمية ذلك المذهب طوال القرون بـ« المعتزلة» متبعين في تسميتهم هذه عبارة الحسن البصرى العالم الجليل التى قالها فى حق واصل بن عطاء المعتزلي الأول، حينما قال : « اعتزل عنا واصل » .

ومن جهة أخري ، إذا ذكر « عمرو بن هشام » مثلا فإنه لا يكاد يوجد من يعرف الشخص المقصود بهذا الاسم ، ولكن إذا ذكر « أبو جهل » فإن أكثر المثقفين المسلمين يعرفونه ويتذكرون عداءه الشديد للإسلام وعناده المستمر وعدم قبوله لطريق الهداية .

وبعد هذه المقدمة نأتي إلى صلب الموضوع وهو تعمد بعض الكتّاب أن يسموا الدولة العثمانية بـ « الامبراطورية » ، ونحن عندما ننظر إلى الوثائق العثمانية والكتب المؤلفة والمطبوعة فى عهد العثمانيين، لانرى أبدا عبارة«الامبراطورية العثمانية » ، بل نجد أنهم سموا مؤسستهم السياسية بـ«دولت عليّة عثمانية » (الدولة العثمانية العلية) ،ولم يسموا دولتهم أبداً بـ« امبراطوريّة عثمانية » (الامبراطوريّة العثمانية) ، ولا يوجد لهذه العبارة أي أثر فى تراثهم ولا في ما كتب في زمانهم ، ولهذا فيجب على كل عالم أو كاتب جادّ ممن يستعملون عبارة « الامبراطورية العثمانية » فى حق الدولة العثمانية ، يجب عليه أن يستظهر

وثيقة عثمانية في هذا الشأن على الأقل باللغة العثمانية ، وإذا ما لم يأت بالوثائق المؤيدة لرأيه ، فإن تسميته للدولة العثمانية بـ«الامبراطورية » تكون لا أساس لها من الصحة ولا قيمة لها البتة من الناحية العلمية والتاريخية .

وفى الحقيقة لم يسم العثمانيون دولتهم بـ«الامبراطورية» أبدا ، وتوجدعدة آلاف من الوثائق في «خزانة الأوراق العثمانية» (T. C. Basbakanilk Osmani Arsivi) بإستانبول تثبت الحقيقة فى هذه المسألة ، حيث نجد فى هذه الوثائق المحفوظة بالأرشيف العثمانى بإستانبول وفي المراسلات الرسمية للعثمانيين تسمية المؤسسة العثمانية السياسية بـ «الدولة العثمانية العلية » أو « الدولة السنية » وهناك آلاف الوثائق تظهر وتثبت وتؤكد هذا الأمر طوال القرون كما يوجد العديد من الكتب التي ألفها المؤرخون العثمانيون الرسميون (موظفو الدولة) تثبت هذا الواقع أيضا .

وسأعرض فيما يلي بعض الوثائق المحفوظة بالأرشيف العثمانى المتعلقة بهذا الشأن :

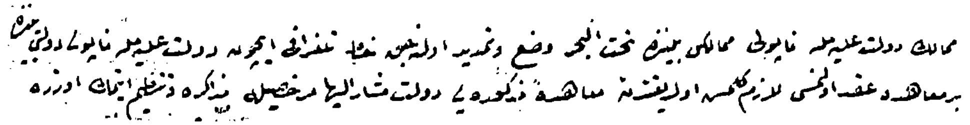

BOA, Name-i Humayun Defteri 12,

Memalik-i Devlet-i 'Aliyyemle Napoli Memaliki beyninde tahtel bahr vaz' ve temdid olunacak hatt-i telgrafi icun . . .

أوائل رمضان ٧٥ (١٢) / ١٨٥٨ .

(وفيما يتعلق بالسلك التلغرافي الذى سيوضع وسيمد بين البلاد لدولتى العلية وبين البلاد النابلية تحت البحر ...)

وثيقة أخرى :

بز که بلطف المولی ترکستان وشامل اولدیغی ممالک وبلدانک پادشاهی السلطان ابن السلطان السلطان الغازی عبد المجید خان ابن السلطان الغازی
محمود خان ابن السلطان الغازی عبد الحمید خانز اشبو تصدیقنامهٔ همایونمزله بیان واعلان ایدرزکه دولت علیه‌مزله حشمتلو ندرلانده وبیبا قرالی
حضرتلری بینلرنده موجود اولان روابط دوستی‌یی تأیید ایله ایکی دولت تبعه‌سی میانلرنده اولان مناسبات تجارتک مکمل مرتبه ترقی وتزایدی موجب

Biz ki bilutfil Mevla Turkistan ve samil oldugu memalik ve buldanin padisahi as sultan ibn as Sultan al Gazi Abdulmedid Khan ibn as Sultan al Gazi Mahmud Khan Ibn as Sultan al Gazi Abdulhamid Khaniz. Isbu tasdikname-i humayunumuzla beyan ve i'lan ideriz ki DEVLET-i 'ALIYYEmizle Hasmetlu Nederlanda ve Biba KRALI Hazretleri beyninde mevcud olan revabit-i dustiyi te'yid . . .

(نحن ، بلطف المولى ، پادشاه تركستان والبلاد التي تحتوي عليها ، السلطان ابن السلطان ، السلطان الغازي عبد المجيد خان ابن السلطان الغازي محمود خان ابن السلطان الغازي عبد الحميد خان ، نبين ونعلن هنا مصادقتنا الهمايونية ، ونؤيد الروابط الودية الموجودة بين دولتنا العلية وبين جلالة ملك ندرلانده (هولانده) وبيبا ...

هنا ، يصدق عبد المجيد خان ، السلطان العثماني ، على المعاهدة المتعلقة بتبادل القناصل بين الدولة العثمانية العلية وبين جلالة الملك ، ملك هولانده وبيبا و فى سنة ١٨٥٧ .

لو نودي السلطان العثماني والخليفة بـ « الامبراطور » لكان الأمرمضحكا جدا ، لأنهم سموا مؤسستهم السياسية

بـ «الدولة العلية » ولم يسموها بـ « الامبراطورية » .

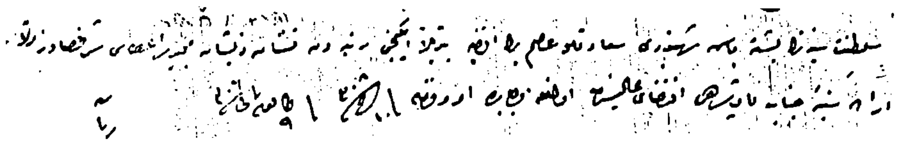

BOA, AMD 257 163

SALTANAT-I SENIYYE nin Peste Sehbenderi Sa'adetlu 'Asim Beg Efendi . . .

عاصم بك أفندي ، سعادة القنصل العام للسلطنة السنية بپشتة ...

إن العثمانيين استعملوا كلمة « السنية » كصفة لدولتهم ، ولم يستعملوا كلمة « امبريال » ، وإنهم كانوا على معرفة بكلمة « الامبراطور » وقد استعملوها ولكنهم استعملوها فى مكانها المناسب ، وبالنسبة للأباطرة الحقيقيين :

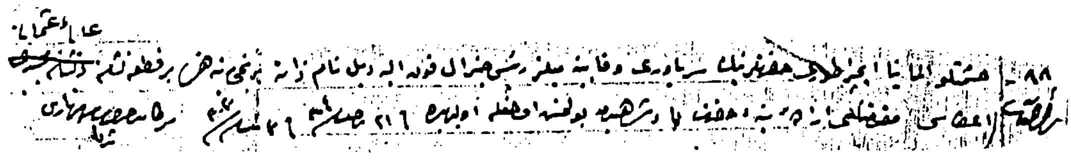

BOA, AMD 256 14

(صاحب العظمة امبراطور ألمانيا ...

فيما يتعلق بالتكرم على أحد الضباط الملازمين للامبراطور بوسام من قبل العثمانيين).

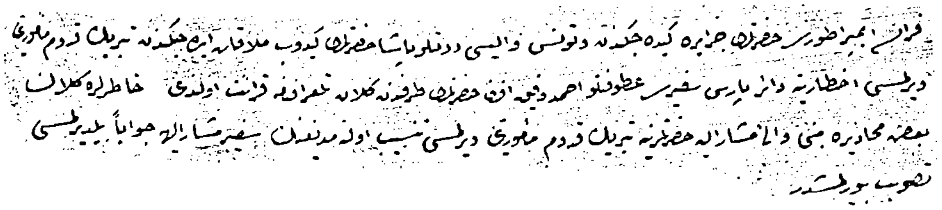

BOA, AMD 216 37

(حضرة امبراطور فرنسا...

فيما يتعلق برحلة الامبراطور الفرنسي إلى الجزائر ورأي الوزراء العثمانيين فى عدم ذهاب باشا تونس العثمانية للترحيب به) .

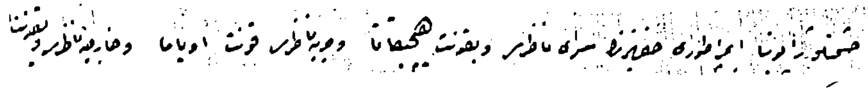

BOA, AMD 257 154

(الوزير المسؤول عن القصر لصاحب العظمة الامبراطور الياباني ...)

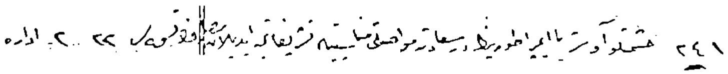

BOA, Irade - Hariciye 626 Sevval 1332

(صاحب العظمة الامبراطور النمساوي ...)

حشمتلو ژاپونیا ایمپراطوری حضرتلری

BOA, AMD 257 169

(صاحبة العظمة عقيلة الامبراطور الياباني ...)

حشمتلو مكنتلو روما ایمپراطوری اولان متوفی التنجی قارولوس

BOA, Name-i Humayun Defteri 8 71

(الامبراطور الروماني ، قارولوث السادس المتوفى)

ويلاحظ أنه إذا كانت الدولة المعاهدة مع العثمانيين ، دولة جمهورية ، فإن العثمانيين يسمون تلك الدولة: بـ « الجمهورية » :

دولت علیه ایله امریقا جمهوریتی بیننده عقد اولنان تبدیل تابعیت معاهده سی

Devlet-i Osmaniyyeile Amerika Cumhuriyyeti beyninde akdolunan tebdili tebe'iyyet muahedesi . . .

(وفيما يتعلق بالمعاهدة التي أبرمت بين الدولة العثمانية وبين جمهورية أمريكا حول تبديل التبعية ...)

وفي الواقع ، فإن المؤرخين العثمانيين الذين كتبوا التاريخ العثماني كانوا مكلفين من قبل السلطان بهذه المهمة ، وقد تحدثوا طوال القرون عن المؤسسة العثمانية السياسية وسموها بـ « الدولة » .

وسأقوم فيما يلي باقتباس بعض العناوين المتعلقة بالموضوع من كتب التواريخ :

(الكلام في ظهور الدولة العلية العثمانية (هكذا ، باللغة العربية ، والمتن باللغة التركية - العثمانية)

نعيما ، روضة الحسين فى خلاصة أخبار الخافقين ، المجلد الأول ، ص ٦ .

﴿ الكلام فى ظهور الدولة العلية العثمانيه ﴾
نهاليج محرراوزره وقتاكه صفحات ادوار وصحايف روزكاراوزره كالك حكمت
وغايه قدرت ايله سنين مئين هجرت بشير ونذير منوال مشروح

إن نعيما (١٦٥٥ - ١٧١٦م) كان مؤرخا رسميا مكلفا بتسجيل الوقائع ، وهو يستعمل الاسم واللقب الحقيقيين والطبيعيين للعثمانيين : « الدولة » و « العلية » ولو كان السلطان العثماني أو الوزراء يعتبرون المؤسسة السياسية الحاكمة « امبراطورية » لأشاروا على نعيما بتصحيح الاسم واللقب ، وهم لم يفعلوا طبعا إذ أنهم لم يتصوروا أن تسمى دولتهم فى وقت من الأوقات بـ « الامبراطورية » ، ولو كان الأمر كذلك ، لرأينا مثلا عبارة : « ظهور الامبراطورية العثمانية» ، ولكنهم لم يستعملوا هذه العبارة قطعا .

ولنقتبس من كتاب مؤرخ عثماني رسمي آخر :

كمل طبع هذا التاريخ الجديد والاثر المفيد المسمى بمحاسن الاثار وحقايق
الاخبار لاحمد واصف افندى المؤرخ فى الدولة العلية العثمانية لازالت

أحمد واصف ، محاسن الآثار وحقايق الأخبار ، المجلد الثاني ، ص ٢٥١ . بولاق (مصر) ١٢٤٣ .

وفي آخر الكتاب نجد هذه العبارة بالعربية :

(كمل طبع هذا التاريخ الجديد والأثر المفيد المسمى بـ«محاسن الآثار وحقايق الأخبار » لأحمد واصف أفندي

المؤرخ في الدولة العلية العثمانية ...

وهناك المصادقة من قبل السلطان العثماني عبد العزيز سنة ١٨٧٠ على المقررات من قبل ممثلي العثمانيين وألمانيا والنمسا وفرنسا وبريطانيا وإيطاليا وروسية المتخذة بلندن حول تعديل بعض مواد معاهدة باريس التي أبرمت في ٣٠ مارس من سنة ١٨٥٦ ، فلنطالع الألقاب الرسمية لممثلي تلك الدول المعنية :

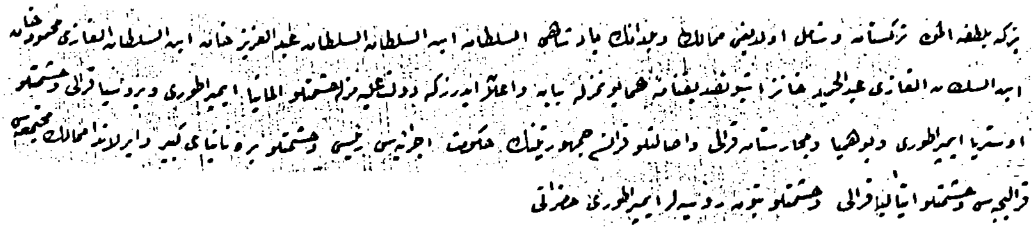
بز كه بلطف المولى تركستان و شامل اولديغي ممالك و بلادك پادشاهي السلطان ابن السلطان السلطان عبد العزيز خان ابن السلطان الغازي محمود خان
ابن السلطان الغازي عبد الحميد خان ز اشبو تصديقنامهٔ همايونمزله بيان و اعلان ايدرز كه دولت عليه مز ... حشمتلو المانيا امپراطوري و پروسيا قرالي و حشمتلو
اوستريا امپراطوري و بوهميا و مجارستان قرالي و اصالتلو فرانسه جمهوريتنك حكومت اجرائيه رئيسي و حشمتلو بريتانياي كبير و ايرلاند ممالك مجتمعه
قراليچه سي و حشمتلو ايتاليا قرالي و حشمتلو بتون روسيه لر امپراطوري حضرتلري

BOA, Name-i Humayun Defteri 13 73

« نحن بلطف المولى پادشاه تركستان والبلاد التي تشتمل عليها ، السلطان ابن السلطان ، السلطان عبد العزيز خان ابن السلطان الغازي محمود خان ابن السلطان الغازي عبد الحميد خان، نفيد ونعلن بمرسومنا الهمايوني هذا ، التصديق على ما اتفق عليه ممثلو دولتنا العلية وممثلو حضرات صاحب العظمة امبراطور المانيا وملك بروسيا ، وصاحب العظمة امبراطور النمسا وملك البوهميا وانكروس ، وصاحب الأصالة رئيس الحكومة الإجرائية لجمهورية فرنسا ، وصاحبة العظمة ملكة

الممالك المجتمعة لبريطانيا العظمي وايرلانده ، وجلالة ملك إيطاليا ، وصاحب العظمة امبراطور جميع روسية ... » .

١٩ محرم ٨ ١٢٨

نري أن لقب الحاكم العثماني :

بلطف المولي السلطان ابن السلطان ، پادشاه تركستان السلطان عبد العزيز خان ابن السلطان الغازي محمود خان .

ابن السلطان الغازي عبد الحميد خانْ .

ويتحدث السلطان العثمانى عن المؤسسة السياسية بـ« دولتنا العلية » وليس « امبراطوريتنا العظيمة » ، ويذكر لقب الحكام الآخرين كما يلي :

١- صاحب العظمة امبراطور المانيا وملك بروسيا ؛

٢- صاحب العظمة امبراطور النمسا وملك البوهميا وانكروس ؛

٣- صاحب الأصالة رئيس الحكومة الإجرائية لجمهورية فرنسا ؛

٤- صاحبة العظمة ملكة الممالك المجتمعة لبريطانيا العظمى واير لانده ؛

٥- جلالة ملك إيطاليا ؛

٦- صاحب العظمة امبراطور جميع روسيه .

كما نشاهد نفس الأمر في الوثيقة المصدقة على الاتفاقية القنصلية بين الدولة العلية وبين ملك باويه را :

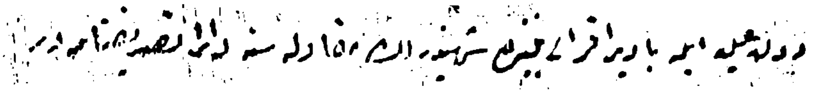

BOA, Name-i Humayun Defteri 13 71

هذا مرسوم مصدق على الاتفاقية القنصلية بين الدولة

العلية وبين ملك باويه را :

« نحن بلطف المولى پادشاه تركستان والبلاد التي تشتمل عليها ، السلطان ابن السلطان ، السلطان عبد العزيز خان ابن السلطان الغازي محمود خان ابن السلطان الغازي عبد الحميد خان نفيد ونعلن بمصادقتنا (الهمايونية) هذه ، بين دولتنا العلية وبين جلالة ملك باويه را »

إن هذه الوثيقة حقيقية ، تنتظر بالأرشيف العثمانى بإستانبول من يهتم بالوقائع والحقائق ، وتظهر وتثبت الألقاب الحقيقية ، ولا حاجة لنا بعد هذا بإطالة الكلام في هذا الشأن .

ومن جهة أخري ، نلاحظ أن العثمانيين يقولون عن المؤسسة السياسية العثمانية فيما يتعلق بالأمور الداخلية أيضا ، « الدولة العلية العثمانية ... »

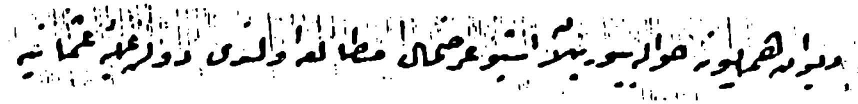

BOA, Mukteza Deíteri 21 114

(اطلع علي المطلب الذي أحيل إلى الديوان الهمايوني، بالنسبة للمراكب الخدمة التى تحمل علم الدولة العثمانية العلية...)

وثيقة أخري :

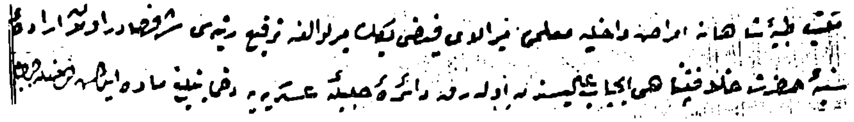

BOA, AMD 257 72

« فيما يتعلق بترفيع رتبة ميرالاى فيضى بك ، معلم

الأمراض الداخلية بكلية الطب الشاهانية إلى رتبة مير لواء ... »
وفيما يلى نقتبس بعض الأمثلة الأخرى :

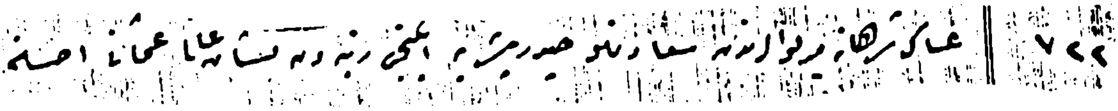

BOA, AMD 257 145

...عساكر شاهانه...

الجنود الشاهانية ... (لا امبريالية)

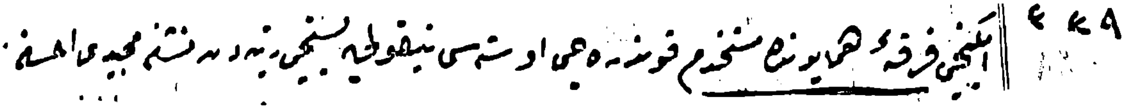

BOA, AMD 257 71

ايكنجي فر قهءِ هما يونده مستخدم ...

الذى يُستخدم فى الفرقة (الفيلق) الثانية السماوية (الهمايونية) ... (لا امبريالية) .

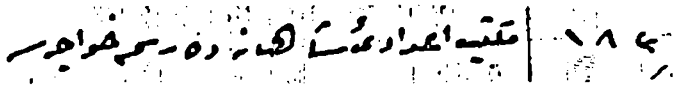

BOA, AMD 256 29

مكتب إعدادئ شاهانه ده رسم خوجه سى

معلم الرسم (التصوير) بالمدرسة الإعدادية الشاهانية ... (ليس الامبريالية)

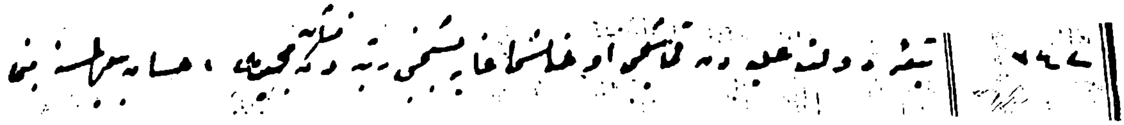

BOA, AMD 257 149

تبعهءِ دولتِ عليه دن قوماشجى اوهانس اغايه بشنجى

رتبه دن نشانِ مجيدى إحسان بيور لمسنه مبنى ...

بناءً على التكرم على تاجر الأقمشة أوهانس من تبعة الدولة العلية بوسام مجيدى من الرتبة الخامسة ...

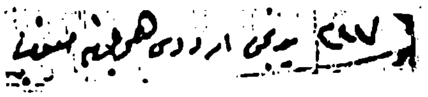

BOA, AMD 256 34

يدنجى اردوى همايون ...

الجيش السماوي (الهمايوني) السابع .

إن العثمانيين اعتقدوا أنهم كانوا يحملون الرسالة السماوية – الإسلام – لذا فقد سموا جيوشهم بـ « اردوى همايون » (الجيش الهمايونى) ، لأن « هما » طائر خيالى (اسطورى) كما هو المعلوم يعيش دائما وأبدا فى السماء ، لا ينزل ولا يطأ الأرض وتبيض فى السماء أيضا ، فتنفتح البيضة أيضا فى السماء ، فيخرج الفرخ ولا يطأ الأرض، وكلمة «همايون » تعنى : المنسوب إلى الـ « هما » ، ولم يسموا أبدا جيشهم بـ « الامبريالى » ، ولم يتبنوا ذلك اللقب أبدا .

قد يقال إنه من الممكن أن تكون دولة ما امبريالية ولا تستعمل كلمة « امبريال » أو كلمة « امبراطورية » ، ونؤجّل تقديم نماذج الوثائق الأخرى المقتبسة من عدة آلاف الوثائق بالأرشيف العثماني ، إلى نهاية هذه المقالة ، وننظر هل تنطبق وجهات الامبريالية على العثمانيين :

١) الوجهة السياسية للامبراطورية :

فى الأنظمة الامبراطورية نجد شعباً حاكماً ونجد شعوبا

محكومة ومغلوبة على أمورها ، والحكم بيد الشعب الحاكم الذي يزوّد الإدارة بالإطارات الإدارية والممثلين ويفرض على الشعب التى تحت سيطرته إرادته ورغباته ، ومما لا شك فيه أن أحسن معيار لبيان حقيقة النظام الامبريالي هو المقارنة لإثبات الوقائع والحقائق ، فلنقتبس من بعض الكُتّاب الغربيين فى هذا الشأن :

« الامبريالية (مشتقة من اللاتينى : امبريوم : قدرة) الحصول علي الامبراطورية وإدارتها فى كثير من الأحيان هو نوع من التوسع التجاري والصناعي العامين ، أخذت إسبانيا والبرتغال والبلاد المنخفضة (هولانده) وفرنسا وبريطانيا تنشئ امبراطوريات ما وراء البحار ابتداء من القرن الخامس عشر فصاعدا ، ومن الممكن القول بأن الامبريالية المعاصرة بدأت اعتبارا من الثمانينات وثمانمائة وألف تبذل قصارى جهدها للحصول علي المستعمرات فى أفريقيا المتخلّفة » . (١)

« الامبريالية الأوربية والإدارة الامبريالية كانت إدارة الشعوب الأجنبية والأراضي الأخرى من قبل الأوربيين مظهرا مهما جدا للسيطرة السياسية ، وكان هناك نقاش و ما يزال حول ماهية الامبريالية ، يظهر أنه من المفيد أن تنحصر الفكرة الامبريالية فى السيادة المباشرة والصورية بالرغم من أن حدودها تختلط بأنواع السيطرة علي العالم اللاأوربى ...

وفى القرن التاسع عشر توسعت الامبريالية الاوربية وأصبحت أكثر تأثيراً من قبل وحدث هذا الأمر فى مرحلتين مختلفتين : المرحلة الأولى بدأت حوالى ١٨٧٠ ، وفى خلال تلك الفترة ، استمرت بعض القوى الامبريالية فى توسيع امبراطورياتهم توسيعا مؤثرا ، مثل روسيا وفرنسا وبريطانيا

العظمى، و آخرون توقفوا أو وجدوا أنفسهم منكمشين مثل : الهولانديين والأسبان والبرتغال » . (٢)

« اعتبر الأتراك أنفسهم قبل كل شيء « مسلمين » حتى القرون التاسع عشر : وكان ولاؤهم على المستويات المختلفة للإسلام والأسرة العثمانية والدولة ، اللغة التى يتكلم بها المرء ، البقعة التى يسكنها ، والعنصر الذى يدعي المرء الانتساب إليه ، كان من الممكن أن تكون كل هذه العوامل تشير إلى خصائص شخصية ، عاطفية أو اجتماعية ، لم يكن لهذه الأمور تأثير سياسي أبدا ، إن الأتراك تبنّوا الإسلام وعرّفوا أنفسهم كمسلمين إلى درجة أن فكرة الانتماء إلى الشعب التركى قد نُسيت إلى حد كبير - بالرغم من استمرار اللغة التركية ووجود الدولة التركية فعلا إن لم يهتموا بذلك من الناحية النظرية - واستمرت فكرة « التركية » بين الناس العاديين وأهل القرى والبدو ووقع التعبير عنها فى صورة الأدب الشعبي الغني والمهمل، والطبقة المثقفة الحاكمة لم تهتم بانتمائها التركي مثلما هو الحال بالنسبة للمثقفين العرب والفارسيين كجماعة لها خصائصها وثقافتها داخل إطار الإسلام » . (٣)

ومما لا شك فيه بطلان الادعاء أن الأتراك العثمانيين استعملوا الإسلام مستهدفين به التظاهر أمام رعاياهم العرب والآخرين بأنهم كانوا مسلمين ، ولهذا حكموهم . ولنقتبس الكاتب الغربي الغير المسلم :

« إن الدولة العثمانية (و يقول الامبراطورية ، حسب التعود) كانت من تأسيسها إلى انحطاطها عبارة عن دولة وُجدت للتطوير أو الدفاع عن القدرة الإسلامية والإيمان ، كان العثمانيون فى حرب دائمة خلال ستة قرون مع الغرب

النصراني ، فى البداية محاولين وناجحين - بصفة عامة - فرض الحكم الإسلامى على قسم كبير من أوربا ثم الدفاع والمحاولة لوقف أو تأخير الهجوم العشوائي من قبل الغربيين ، هذا النزاع الذي استمر طوال القرون والذي كان ينبثق عن الإسلام - التركي ، كان من الطبيعي أن يتأثر به كيان الجمعية التركية والمؤسسات التركية ، فبالنسبة للتركي العثماني ، كانت دولته (ويستعمل امبراطوريته حسب التعود) هي الإسلام نفسه ، مشتملة على الأراضي الأساسية الإسلامية ، وفي كتب المؤرخين العثمانيين يقال عن الأراضي العثمانية دائما « الأراضى الإسلامية » ، وعن الحاكم « پادشاه إسلام » ، وعن الجيوش «عساكر الإسلام » وعن الرئيس الديني للدولة العثمانية « شيخ الإسلام » ، ومن حيث الهوية يعتبر شعب الدولة العثمانية أنهم مسلمون قبل كل شيء . وكما رأينا فإن استعمال مصطلحى « العثماني » و « التركي » هو استعمال حديث بالمقارنة ، حيث إن الأتراك سموا أنفسهم « مسلمين » ، - انصهرت هويتهم فى الإسلام - إلي درجة تفوق أى شعب مسلم ، وجدير بالذكر أنه حينما كانت كلمة « التركى » لا تكاد تستعمل في تركيا ، أصبحت تلك الكلمة تعنى « مسلم» فى الغرب ، وكان يقال عن المهتدي الغربي أنه صار « تركيا» حتى ولو اهتدى أحد في مدينة فاس المغربية أو في أصبهان (خارج الحدود العثمانية) » . (٤)

ولم يكره العثمانيون الشعوب التي حكموها على الإسلام ، بل نظّموهم حسب معتقداتهم في نظام « الملة » ، كان لكل شعب « ملته » أي انتظم جميع الشعوب في « ملل» حسب أديانهم فكانت هناك مثلا « ملة الأرمن » ، « ملة

الروم» ، الخ . وكانت كل ملة تتمتع بحرية كاملة ، يقول الأستاذ (C. M. Kortepeter) :

« يستحق العثمانيون الثناء عليهم بتطبيقهم نظام « الملة» الذي هو سقيم سياسيا ولكن يستحق المدح أخلاقيا ... » (٥).

وكما هو معلوم ، فإن الشعوب المحكومة تكون تعسة وشقية تحت الحكم الامبريالي ، وتحاول بطبيعة الحال ، التخلص من المستعمر إذا سنحت لها الفرصة ، ولو كانت الدولة العثمانية امبراطورية ، و امبريالية ، لثارت عليها جميع الشعوب التابعة للحكم العثماني بأوربا بما فيها الشعوب التي كانت قد دخلت فى الحكم العثماني أخيرا ، حينما تحطمت الدولة العثمانية في سنة ١٤٠٢ نتيجة الحرب مع تيمور الأعرج وأسر السلطان بايزيد ودخل العثمانيون في حرب داخلية استمرت إحدى عشرة سنة ، ولم يكن هناك أسطول عثماني يستحق الذكر وقد انقسمت الأراضي العثمانية إلى قسمين كبيرين فى الأناضول وأوربا ، يفرق بينهما المضيق ، وفى الوسط الدولة البيزنطية ، عاصمتها القسطنطينية ، فلو ثار أي شعب فى الأراضي العثمانية بأوربا لكان من السهل جدا أن يحرز استقلاله، ولكن لم يثر أي شعب على العثمانيين ، مما يظهر ويثبت ما كان يسود تلك المناطق إذ ذلك من العدل والرفاهية تحت حكم الدولة العثمانية .

وهل يكون الأمر كذلك في حكم امبريالي ؟ والجدير بالذكر أن السكان بالقسم الأوربي من الدولة العثمانية كانوا في الغالب غير المسلمين .

وبالعكس ، نجد النصارى (الصرب والكروات) قد تصارعوا في ما كان يسمى بـ « يوغوسلافيا » في الربع الأخير

من القرن العشرين ، وهم لم يتصارعوا تحت الحكم العثماني، يثبت هذا الأمر أن العدل والهناء كانا سائدين فى المنطقة وكان الناس في عيشة راضية تحت الحكم العثماني الذي كان يسمح للجميع بحرية العقيدة والعيش حسب معتقده .

ومن جهة أخرى ، نشاهد موقف الناس من الحكم الامبريالى فيما يحدث في الاتحاد السوفياتى نتيجة فرصة متاحة إلى حد ما .

ومن المعلوم أن كثيرا ممن حازوا منصب « الصدر الأعظم» والوزراء كانوا من أصل غير تركي حيث انهم أخذوا من الشعوب التي كانت تحت الحكم العثمانى بأوربا ، وبعضهم كان يحتفظ بلغة أمه وكان يتحدث بها ، وهم الذين تحملوا المسؤولية فى كثير من الأمور المهمة وفى الجيش المركزي (جنود الانكشارية) من « الدوشيرمه » (المأخوذة من النصارى التابعين للدولة) عادة وليس من العنصر التركى .

فكيف تكون الدولة العثمانية امبراطورية تركية ؟

ونرى أيضا ، الشخص الذي يمثل الدولة العثمانية كقنصل رسمي للدولة فى باويه را مثلا ، ليس تركيا مسلما ، بل هو رومي نصراني واسمه ارستاركي بك :

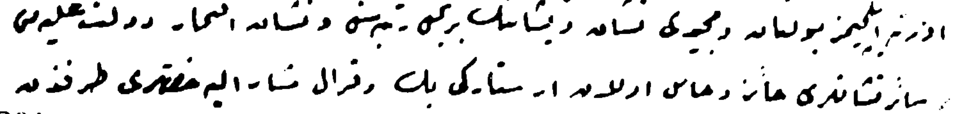

BOA NHD 13 P.71

هذه أمثلة قليلة ، ونعرف أن الدولة العثمانية التي قامت للإسلام ، وكان الإسلام سبب وجودها ، كانت تسامح أتباعها من غير المسلمين ، ونرى وزراء أرمن نصارى في الحكومة العثمانية .

وهل هذه ، صورة للدولة التركية الامبريالية ؟

٢) الوجهة الثقافية :

من أهم مظاهر امبراطورية ما ، أن تفرض لغتها على الشعوب المحكومة ، لأن اللغة هي الحجر الأساسي للثقافة ، ولا شك أن الثقافة هي أهم العناصر التي تبني الشخصية الإنسانية وأكثرها تأثيرا فى صياغة الشخصية ، وبناء على ذلك ، ينتمي الفرد عادة إلى الشعب الذي يترعرع في ثقافته ، لا إلى الشعب الذي ينحدر منه عرقيا ، فالشعوب الافريقية المحلية وصلت إلى حالة قريبة من ضياع هويتهم ، وصار الخريجون وكثير من الناس يتكلمون بالانكليزية أو الفرنسية ، وهيأ الانكليز ظروفا أصبح الناس بسببها يظنون أنهم بريطانيون ،ولو سئل افريقي محلي تحت الحكم البريطاني مثلا ، عما إذا كان سافر إلى بريطانيا لأجاب : « لا ، لم أذهب إلى الوطن أبدا » . كأن وطنه هو بريطانيا ، وكان التونسي أو الجزائري تحت الحكم الفرنسي لا يكاد يجد عملا يسد به رمقه إن لم يعرف اللغة الفرنسية ، وفي الاتحاد السوفياتي يعرف جميع الناس تقريبا اللغة الروسية مع أن أكثر السكان ليسوا من جنس روسي .

ومن مظاهر الأمبريالية :

أن العلوم الطبية كانت تدرس باللغة العربية بالجامعة في مصر ، ومن نتائج الاستعمار البريطاني والأمبريالية البريطانية أن أصبحت العلوم الطبية اليوم بمصر تدرس باللغة الانكليزية، لا باللغة العربية إذ أن الامبريالية البريطانية بذلت قصارى جهدها للقضاء على العربية الفصحى .

والعثمانيون ، على العكس ، استعملوا اللغة العربية

الفصحى للتدريس ، لا اللغة التركية طوال القرون الخمسة الأولى على الأقل ، وفي القرن التاسع عشر بدأوا يدرسون العلوم الحديثة باللغة الفرنسية في بعض كليات الجامعة . واستمرت اللغة العربية تدرس كلغة أساسية وتدرس العلوم الإسلامية بها حتى انقراض الدولة العثمانية ، واستعملوا الحروف العربية لكتابة اللغة العثمانية - التركية ، وكانت الصورة العامة للحياة الثقافية صورة عربية لسبب وحيد وهو أن العثمانيين قاموا للإسلام ، والإسلام كان سبب وجود دولتهم وللغة العربية لغة القرآن الكريم ، وقد احتوت اللغة العثمانية - التركية على كلمات دخيلة من العربية فى حدود ٦٠ ٪ على الأقل ، واللغة التركية تحتوى اليوم علي كلمات دخيلة من العربية فى حدود ٣٠ ٪ .

ولا حاجة لذكر أهمية الأسماء التى يتسمى بها الناس ، وكلمة « علم » تستعمل للعلامة التى تمثل « الدولة » كما أنها تمثل الشخص ، إذن ، علم الإنسان كعلم الدولة ، وإذا نظرنا إلى أعلام الحكام العثمانيين فإنا نجدهم كما يلي :

عثمان ١٢٩٩م ، اختيار الدين اورخان ١٣٢٦ م، مراد الأول ١٣٦٠م ، بايزيد ١٣٨٩م ، محمد الأول ١٤٠٢م -١٤٢١م ، سليمان ١٤٠٣م ، موسى ١٤١٠م ، مراد الثاني ١٤٢١م ، محمد فاتح القسطنطينية ١٤٥١م، با يزيد الثاني ١٤٨١م ، سليم الأول ١٥١٢م، سليمان المشرع ١٥٢٠م، سليم الثاني ١٥٦٦م، مراد الثالث ١٥٧٤م، محمد الثالث ١٥٩٥م، أحمد الأول ١٦٠٣م، مصطفي (أولا) ١٦١٧م، (ثانيا) ١٦٢٢م، عثمان الثاني ١٦١٨م، مراد الرابع ١٦٢٣م، إبراهيم ١٦٤٠م، محمد الرابع ١٦٤٨م،سليمان الثاني ١٦٨٧م، أحمد الثاني ١٦٩١م، مصطفى الثانى ١٦٩٥م،

أحمد الثالث ١٧٠٣م، محمود ٣٠ ١٧ م، عثمان الثالث ١٧٥٤م، مصطفى الثالث ١٧٥٧م، عبد الحميد ١٧٧٣م، سليم الثالث ١٧٨٩م، مصطفى الرابع ١٨٠٧م، محمود الثاني ١٨٠٨م، عبد المجيد ١٨٣٩م، عبد العزيز ١٨٦١م، مراد الخامس ١٨٧٦م، عبد الحميد الثاني ١٨٧٦م، محمد الخامس رشاد ١٩٠٩م، محمد السادس وحيد الدين ١٩١٨م، -١٩٢٢م.

حكم العثمانيون القسم الأكبر من شمال افريقا ، ولو لم يذهب العثمانيون هناك لكانت تلك البلاد - أعني الجزائر وتونس وليبيا - لكانت بلاد ا يتكلم أهلها باللغة الاسبانية ويدين بدين الكاثولك ، كما حدث بالنسبة للأندلس - اسبانيا- ، وقد ذهبت فرنسا وبريطانيا وايطاليا إلى شمال افريقا بعد العثمانيين .

فهل هناك - ولو شخص واحد - من بين حكامهم وملوكهم من سمي باسم عربي ؟ هذا أمر لا يتصور ، وفي تركيا نجد أعلام الناس كذلك عربية - إسلامية عامة حتى اليوم، أي بعد زوال دولة العثمانيين بـ ٧٠ عاما .

والخلاصة : هل يمكن لإمبراطورية ما أن تعلم شعبها لغة شعب تحت حكمها وأن تستعمل لغة شعب آخر كلغة التدريس طوال القرون ، وتسمي حكامها وكثيرا من أفراد شعبها بأسماء مأخوذة من شعب تحكمه ؟ وتكتب لغتها بحروف لغة شعب تحكمه ؟ ونجد حتى فى أيامنا هذه ، أن أشهر الخطاطين الماهرين بالخط العربى ، هم من تركيا ، إذ أن فن الخط له جذور عريقة فى التراب التركي ، وهل من الممكن أن يتصور الإنسان أن اللغة العربية تستعمل في بريطانيا وفرنسا كلغة

التعليم ؟ وهل يمكن أن يتصور الإنسان اللغتين الانكليزية والفرنسية مكتوبتين بالحروف العربية ؟ مع العلم أن المهتدين الأوربيين يستعملون الحروف العربية للغتهم سريا ولكن هذا أمر آخر ، ونتحدث هنا عن سياسة دولة حكم الأراضي العربية .

حدث هذا الأمر بالنسبة للغة التركية ، إذ أنها كتبت بالحروف العربية ألف سنة حتى ١٩٢٨م ، بعد ست سنوات من انقراض الدولة العثمانية ، وكان أول مؤلف ألّف القواعد للغة التركية هو Jean Deny عالم فرنسي ، ليس تركيا ، وبالنسبة للأتراك الذين كانوا يدرسون بالمدارس العثمانية ، كان علما الصرف والنحو علمين خاصين باللغة العربية فحسب بالنسبة إليهم لم يكن للغة التركية صرف ولا نحو . كانت اللغة العربية والثقافة الإسلامية الحجرين الأساسيين للحياة العقلية العثمانية ، إن الشاعر فضولي ،أحد الشعراء الذين برعوا في العهد العثماني ، «كتب قصيدته المسماة بـ « صو » (الماء) في مدح النبي محمد عليه الصلاة والسلام ، يصور فيها كيف يجري الماء منسابًا بين الأحجار فى البحث عن محمد صلى الله عليه وسلم ويحاول الوصول إليه ، وتلك القصيدة من أروع القصائد التي أنشدت في العهد العثماني .

وكان فى كل بيوت العثمانيين تقريبا ، « الشمائل الشريفة » في صورها المختلفة باللغة العربية ، تصور شخص الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولم تكن صور الحكام العثمانيين على جدران البيوت .

ولنقتبس من مؤلف عربي غير مسلم في كتابته عن اللغة التركية في الإدارة العثمانية :

« خادم السلطان الذي استعمل اللغة التركية ، لم يكن

السلطان الذي لم يتكلم باللغة التركية لم يحس أنه يبقى خارجا عن البيئة السياسية » (٦).

وأخيرا ، لنتذكر ما حدث فى المجال الثقافي بين دي غول وبين عبد الناصر :

قرر عبد الناصر لسبب ما ، أن تدرس لغة أوربية أخرى مكان اللغة الانكليزية بالمدارس المصرية وأعلن عن قراره ، فقرر شارل دى غول ، الرئيس الفرنسى إرسال ٤٠٠ معلم للغة الفرنسية إلى مصر على الفور على نفقة الحكومة الفرنسية ! .

٣) الوجهة الاقتصادية :

تستعمل الامبراطورية تجارها ليستغلوا قدر الإمكان المواد والمنابع في المستعمرات ، أما في الدولة العثمانية فلم يكن هناك تجار من الأتراك طوال القرون ، وكانت التجارة في الغالب بيد غير المسلمين حتى انقراض الدولة العثمانية ، إذ « تعلم المسلمون أربع مهن : الإدارة ، الحرب ، الدين ، والزراعة . كانت الصناعة والتجارة متروكتين إلى غير المسلمين المحكومين الذين استمروا في تطبيق صناعاتهم الموروثة » . (٧)

أ هذا يا ترى تصرف امبراطورية ؟

لو كانت الدولة العثمانية قوة امبريالية ، لكان الشعب الأصيل فيها ، المؤسس لها ، أعني الأتراك ، أغنى الناس في الدولة ، وكما هو معلوم ، لم يكن الأمر هكذا البتة .

وقد خاضت القوى الامبريالية حروبا من أجل الحصول على السوق والتجارة ، وتاريخ اوربا في القرن التاسع عشر مليء بمحاولات الأوربيين في البحث عن الأسواق الحرة ، وعلى العكس ، قامت الدولة العثمانية على مبادئ أخرى ، تنطلق من الإسلام ، ويجدر بالذكر بهذا الصدد ، أن حسين ، داي الجزائر

العثمانية لطم الممثل الفرنسي بالجزائر من أجل أحد أتباع الدولة العثمانية ، ولم يكن ذلك المواطن الجزائري مسلما ولا تركيا ، بل كان تاجرا يهوديا ذميا ، وعمل الداي هذا تسبب في احتلال الجزائر من قبل فرنسا في سنة ١٨٣٠م .

الخلاصة :

لقد أثبتنا وأكدنا في هذه المقالة ما يلي :

١- إن العثمانيين لم يستعملوا أبدا « امبراطورية » بالنسبة لدولتهم ، ولكنهم استعملوها بالنسبة للامبراطوريات الحقيقية التي يليق بها هذا اللقب ، ولم تعارض تلك الامبراطوريات على هذا اللقب .

٢- إن العثمانيين تبنّوا واستعملوا عبارتي « الدولة العلية » و« الدولة السنّية » .

٣- قامت الدولة العلية العثمانية على الإسلام ومن أجل الإسلام ، وكان الإسلام للدولة السنية هو « سبب وجودها » ، واستعملوا لقب « الهمايوني » (السماوي) بالنسبة لسلاطينهم وجيوشهم ، والدولة العثمانية لم تكن دولة قومية .

٤- « الامبراطورية » و « الامبريالية » لا تتماشى مع الدولة العثمانية أبدا من النواحي السياسية والثقافية والاقتصادية.

ونعود فنكرر : أن تسميه أية مؤسسة سياسية -اجتماعية، أو أي كيان سياسي بغير اسمه الخاص ، تنطوى على تقويم مغرض وغير موضوعي وتتضمن العداء نحوه ، ولا يحق لأحد أن يسمي العثمانيين بتسمية « الامبراطورية » ، هذه الكلمة التي تشتمل في اشتقاقها ومعناها على الاستغلال وانتهاب الخيرات، ويكون من استعمل هذه الكلمة القذرة بحق

الخيرات، ويكون من استعمل هذه الكلمة القذرة بحق العثمانيين قد افترى عليهم. هل نتكرم عليهم بلقب لم يحتاجوا هم إليه ولم يستعملوه طوال القرون أبدا ؟

ومن المفترض أن يفكر كل عالم وكاتب في الكلمات التي استعملها الآخر دون تفكير ، إن العالم والمفكر يختلف عن الببغاء الذى يردّد ما يسمع دون تفكير ولا فهم ، ولكن الباحث، العالم ، يحسن الناس الظن به ويفترضون فيه أنه يفكر مرة قبل أن يتكلم ويفكر مرتين قبل أن يكتب .

فعلى كل عالم ومفكر يحترم نفسه ومكانته وحسن ظن الناس به أن لا يستعمل تلك الكلمة التي لا تناسب العثمانيين علميا وتاريخيا وواقعيا كما أثبتنا ، و بالله التوفيق .

الهوامش

1) Chiras Cook, Dictionary of Historcial Terms, Macmillam, London.

2) J. M. Roberts, The Hutcinson History of The World, P.835

3) Bernard Lewis. The Emergence of Modern Turkey, P. 2 London,1968.

4) .... Ibid, P.13.

5) C.M. Kortepeter , Comment on Halil Inạcik 's ' The Turkish Impact on the Development of Modern Europe ' in " The Ottomn Sttoman State and hts place in World History " , Ed . by Kamal Karpat , Leiden

1974.p.59.

6) Albert Hourani , ' The Ottoman Background of the Modern Middle East ' in " The Ottoman State and its place in World History " , Ed , by Kemal Kar- . pat p.67

7) Bernard Lewis , op . cit , p.35.

★★★